

البصمات العقلية والإفرازات الفكرية

أ.د. محمد لبيب سالم

2015-11-11

قال الله تعالى "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا" سورة الأحزاب

"قد تكون الأمانة ممثلة في كلمة أو كلمات. والكلمات هي طاقة الأرواح وهي الإفرازات العقلية التي بدورها نتاج البصمات العقلية. والكلام العاقل هو الذي يدرك العقول فتتهز الكلمات وتتظاهر في مسيرات سلمية ترد شعارات في ميادين الجمل الراقية داعية إلى حالة إنسانية تتحول فيها الكلمات إلى أفعال تديرعجلة الحياة بعيداً عن المصادمات الدموية. وهكذا يكون إعجاز الكلمات عندما يعلم أصحابها بجمال بصمات حروفها. وفي هذا المقال أقدم إجتهداً عن العلاقة بين البصمة العقلية وإفرازاتها الفكرية".

العلاقة بين العقل والفكر

العقل والفكر لفظان مختلفان، ووجودهما في القرآن أكبر دليل علي ذلك، ولا نقصد بالعقل هنا "الدماغ". فما هو العقل؟ وما هو الفكر؟ هل هناك علاقة بينهما؟ وإن وجدت فما نوعها؟ هل هما متضادان أم متكاملان أم متوازيان؟؟ ولو تأملنا آيات التفكير نجد أنها تحث على البحث في الحكمة من وراء ما نراه بينما آيات العقل تشير إلى الظواهر البينه الظاهره التي يمكن إدراكها بالحواس. وبالتالي فإن التفكير مرحله أعلى من العقل حيث يجمع الإنسان بحواسه المعلومات ويحيط بها ثم يقوم بربطها ليشكل الحقائق ويصيغ الواقع ثم معالجه هذه البيانات لتكوين مفاهيم غير ملموسه بشكل مباشر فيكتشف ويستنتج ويطبق ماوصل إليه في حياته ويستفيد منه. فالعقل يوصل الإنسان إلى الإيمان بالله والتفكر يزيده مرتبه في الإيمان.

وقبل الحديث عن العلاقة بين البصمة العقلية والإفرازات الفكرية أود أن أقدم التفكير وأنماطه المختلفه التي بناء عليها ينتج العقل افرازاته الفكرية. والتفكير في أبسط صورة هو سلسلة من النشاطات العقلية التي يقوم بها الدماغ عندما يتعرض لهثير يتم استقباله عن طريق واحدة أو أكثر من الحواس الخمس. والتفكير بمعناه الواسع هو عملية بحث عن معنى في الموقف أو الخبرة، وقد يكون هذا المعنى غامضاً حيناً وظاهراً حيناً آخر، ويتطلب التوصل

إليه تأملاً وإمعاناً للنظر في مكونات الموقف أو الخبرة التي يمر بها الفرد. ومن الممكن تقسيم مناهج التفكير إلى أنماط أربعة هي: التفكير البدائي والقياسي (الإستدلالي) والمركب والناقد والإبتكاري والعلمي.

• التفكير البدائي: يقوم على عدد من الخرافات، مع إيمان الأفراد التام بان الحكماء لديهم القدرة لوحدهم على تفسير الظواهر. استخدام التأثير النفسي عن طريق إيهام الفرد صاحب المشكلة وتزويده بشحنة نفسه تمنحه تفاؤلاً أكيدا تجاه الحل.

• التفكير القياسي (الإستدلالي): هو تسلسل منطقي للتفكير ينتقل من مبادي وقضايا أولية، إلى استخلاص تعميمات عامة، دون الحاجة للتجريب واختبار صحة هذه التعميمات، فالتأمل والتخيل،عصب مثل هذا النوع من التفكير.

• التفكير الاستقرائي: يهتم بتفسير ظواهر جزئية انطلاقاً من نظريات عامة أو تعميمات مرصودة سلفاً.

• التفكير المركب: عبارة عن منهجية منظمة في التفكير تعتمد على ممارسة مجموعة من الخطوات (المهارات العقلية) والإرتكان إلى التحليل المنطقي والتجريب المتقن للوصول إلى حلول للمشكلات العلمية والمهنية والإبومية وغيرها، ثم الارتقاء بفاعلية هذه الحلول ما أمكن وفقاً لاستقراء الواقع ونتائج التجارب عليه. ينقسم التفكير المركب بدوره إلى التفكير الناقد والتفكير الإبتكاري والتفكير العلمي المنوط به حل المشكلات.

• التفكير الناقد: هو عملية عقلية تضم مجموعة من مهارات التفكير مثل تقويم ثبات وصدق المعلومة وتفسير واستنباط واستخراج المعلومات الحقيقية واختبار الفرضيات وتتبع المغالطات وتقويم الحوار والنقاش وإصدار أحكام منطقية والتعرف على الإفادة الناقصة والقدرة على التنبؤ وذلك بهدف إصدار حكم حول قيمة الشيء.

• التفكير الإبتكاري: هو نشاط عقلي مركب يسعى للبحث عن حلول أو التوصل إلى نواتج أصيلة لم تكن معروفة مسبقاً. ويشمل مرحلة الإعداد وفيها يسعى المبدع لجمع كافة المعلومات المتاحة حول المشكلة. ثم مرحلة الكمون وفيها تفحص الأفكار حتى تصبح واضحة المعنى محددة الأفكار. ثم مرحلة الإشراف والتي عادة ما تنتهي بالتوصل إلى الحل. وفي النهاية مرحلة التحقيق والتي يتم فيها تقويم الحل وفقاً للمعايير المتوفرة ثم التنقيح والتهذيب والصقل.

• التفكير العلمي: منوط به حل المشكلات والذي من الممكن تعريفه علي أنه منهج أو طريقة منظمة يمكن استخدامها في حياتنا اليومية أو في أعمالنا ودراساتنا. أو علي أنه مجموعة من الاستراتيجيات المتتابعة، تبدأ بالتعرف على المشكلة وتحديدتها، ثم البحث عن الحلول وتجريبها، وتقويمها وانتقاء الأمثل منها بغية إضفاء الفاعلية عليها. ومن سمات

التفكير العلمي التنظيم الدقة والتجريد الشمولية وإلقين البحث عن الأسباب والتراكمية.

والتفكير العلمي يتطلب قدرات خاصة للمفكر منها الطلاقة وهي القدرة على إنتاج أكبر عدد من الأفكار عن موضوع معين في وحدة زمنية ثابتة. المرونة وهي القدرة على تغيير الحالة الذهنية والأفكار بتغيير الموقف والتحرر من القوالب النمطية في التفكير. الأصالة وهي القدرة على إنتاج الحلول الجديدة والطريقة وعدم تكرار الأفكار والحلول التقليدية للمشكلات. الإثراء وهي القدرة على إضافة تفاصيل غزيرة على فكرة أو إنتاج معين. ويشمل حل المشكلات في التفكير العلمي المراحل الآتية:

- مرحلة الحساسية بوجود مشكلة معينة.
- مرحلة البحث عن المعلومات والحقائق التي تساعد على فهم المشكلة بصورة أكبر.
- مرحلة تحديد المشكلة والتعرف على أجزاءها.
- مرحلة جمع البيانات والمعلومات حول أبعاد المشكلة، وتحليلها.
- مرحلة طرح حلول عديدة لحل المشكلة.
- مرحلة تجريب الفروض واختيار أفضل الحلول.

ومن هنا يتضح أن للتفكير مميزات كثيرة منها اكتساب القناعة والتعرف على النفس وما لها وما عليها. كما انه يجدد الإيمان والبصر النافذ في الأمور سواء كانت الأخروية أو الدنيوية مما يقلل من التصادمات الانسانية. وبالطبع عمليات التفكير آيا كان نوعها تتم من خلال العقل. والعقل أمانة أودعها الله سبحانه وتعالى لدي الإنسان دون المخلوقات الأخرى. وكما أن هناك بصمات حسية للأفراد مثل بصمة الأصابع وبصمه العين وبصمه المادة الوراثية والتي لا تتشابه بين إثنين فهناك أيضا بصمات معنوية مثل بصمة العقل وإفرازاتها الفكرية. وإذا كانت البصمات الحسية لا تتأثر بالظروف وتبقى كما هي طوال الحياة، فهل تنطبق نفس الحقيقة العلمية على البصمه العقلية وإفرازاتها الفكرية أم أن الأخيرة تتأثر وتتغير بالتأثيرات البيئية. فإذا كانت البصمه العقلية ثابتة فمعناه أن العقل ثابت في فكره وإن ظهرت إفرازاته الفكرية بأشكال مختلفه. وحينئذ لا يكون هناك مردود من النقاشات الفكرية مهما طال النقاش حيث تبقى البصمه الفكرية ثابتة وتصبح المناقشات والحوارات لا رجاء منها تحتويها دائره بداخلها بصمات عقائديه لا تتغير ولا تخرج عن حيز الدائرة ولا تتأثر بما خارج الدائرة.

أما إذا كانت البصمة العقلية ثابتة ولكن إفرازاتها الفكرية متحررة حينئذ تكون البصمة الفكرية قادرة على أن تتغير وتتشكل وتتمدد وتنكمش على حسب الحالة الفكرية مع بقاء البصمة العقلية ثابتة . فالتغيير هنا ليس فى البصمة ذاتها ولكن فى إفرازاتها الفكرية. وإذا كان ذلك حقا تكون المناقشات والحوارات مفيدة وذات مردود إيجابي حيث يتأثر الفكر ويؤثر ويعطى ويستوعب الإفرازات الفكرية الأخرى أيا كان مصدرها من أفراد أو مجتمعات أو مساجد أو مدارس أو جامعات ولكن تبقى دائما البصمة العقلية بمثابة الإطار الذهني للإفرازات الفكرية. وقد أشبه الفرق بين ثبات البصمة العقلية من جانب وتغير الإفرازات الفكرية من جانب آخر كالماء فى حالته الصلبة (المتجمدة) والسائلة. فثبات البصمة العقلية وإفرازاتها هو بمثابة الماء المتجمد فى الإناء والعكس تماما عندما توضع نفس كمية الماء ولكن فى حالة سائلة فى نفس الإناء أو أواني أخرى حيث يتغير شكل الماء بتغير شكل وحجم الإناء دون أن يؤثر على خصائص الماء نفسه. ونحن أحوج ما يكون إلى إفرازات فكرية تعبر عن البصمات العقلية لكل منا ولكن على شكل الماء السائل عندما يوضع فى الأواني الفكرية فيتمدد باتساعها وينكمش بتضييقها.

وقد أشبه أيضاً الثبات العقلي مع الجمود الفكرى وإختلافه عن الثبات العقلي مع التحرر الفكرى بمرض أصاب الجسد حتى أصبح الجزء العليل شادا عن أجزاء الجسم السليمة الأمر الذى يتطلب علاج دقيق يستهدف العله والتي تمثل هنا الافرازات الفكرية - فيصحها حتى تعود عافيه مره أخرى وإن طال أمد العلاج دون أن يؤثر على الخلايا السليمة - والتي تمثل هنا العقل. وقد يتحول الجمود الفكرى من حالة مرضية بسيطة الى ورم مما يتطلب تدخل جراحى لإزالته. وقد يفسر تحليلي هذا وإعتقادي بنظريه الماء السائل والإفرازات الفكرية وجود العديد من الإختلافات البيئية فى النقاشات والحوارات الفكرية للعقول المتأورة فمنها ما هو متفتح ويقبل الرأى والرأى الأخر فيعطى ويستوعب فيكون الإدراك الفكرى لمنطق الأمور. وعلى الجانب الاخر هناك عقول ينطبق عليها نظريه البصمة الفكرية الثابتة والماء المتجمد حيث يصير الحوار بين الأطراف جامدا متجمدا فلا ينفع بل يضر. ولأن لكل قاعده شواذ فإنى أعتقد أن ثبات البصمات العقلية وإفرازاتها الفكرية هو الشذوذ عن القاعدة وهي ثبات البصمات العقلية مع المرونة الفكرية.

ويبقى السؤال الكبير، كيف يتم التعامل مع البصمات العقلية الثابتة ذات الإفرازات الفكرية الجامدة. والإجابة على هذا السؤال من الصعوبة بمكان ولكن قد يكون من الممكن علاج الجمود العقلي والفكرى على مستوى الفكر وليس العقل وذلك لإعتقادي ان جمود الفكر هو نتاج مؤثرات بيئية أو مجتمعية صارمة أدت الى اختزال المسافة بين البصمة العقلية الثابتة وإفرازاتها الفكرية بحيث أصبنا وحدة واحدة. ومع أنه من الممكن التدخل جراحيا لفصل البصمة العقلية عن إفرازاتها الفكرية إلا أن التدخل الجراحى قد يفشل حيث قد يؤدي إلى عطب

أحدهما أو كلاهما. ولذلك فالعلاج الأمثل قد لا يكمن في الجراحة بل في تعرض الإفرازات الفكرية لمؤثرات خارجية لفترات طويلة الأمد قد تؤدي في النهاية إلى رسم الحدود بين كلا منهما فيصبح الإفراز الفكري حراً ومجدداً وليس منفذاً بصورة عمياء لبصمة المحتوى العقلي.

وكما للجمود الفكري من عيوب بينه فإن التحرر الفكري أيضا قد ينتابه بعض العلل فقد يكون الفكر المتحرر هذا دون المستوى فيظهر ضعيفاً يسمح باختراق الفكر الأخر بسهولة وبدون مقأومه مثله مثل الجسد العليل عندما تتداعى عليه وتصيبه الميكروبات لضعف جهازه المناعي. وقد يكون تحرر الإفرازات الفكرية زائداً عن الحد فيصبح منفراً للأخر وذلك مثله مثل الجسد الذي يصاب بالأمراض ذاتية المناعة نتيجة لإفراط ملحوظ في نشاط الخلايا المناعية فتبدأ بمهاجمة الجسد فتؤدي إلى تأكله وانكماشه وقد يكون الموت في النهاية. وعادة ما تحدث هذه العلل مع الشباب حديثي السن وقليلي الخبرة وذو النظرة السطحية للأمور خاصة في عصر العولمة وتكنولوجيا الاتصالات. فمن السهولة بمكان ان تخرق الافكار الأجنبية أو الغربية افكار الشباب المتحرر الذي لا يعي ثقافته وعاداته ودينه ثم ينقلها لمجتمعه دون ان يدري فيؤثر فيه تأثيراً سلبياً. وقد صاغ القدماء مقوله "العقل السليم في الجسم السليم" وأنا أضيف "الجسم السليم هو العقل السليم" وسلامة العقل هنا هي المرونه الفكرية المعبره عن البصمه العقلية لكل فرد مثلها في ذلك مثل أوراق شجرة اللبلاب التي تنمو من جذر ثابتة ولكنها تتشكل بشكل الجدران التي تنمو عليها.

وحيث أن الكثير من الظواهر الحياتية والفكرية من الممكن ردها إلى ظواهر بيولوجية، فإن نظرية البصمة العقلية والإفرازات الفكرية تذكرنى بالخلايا المناعية المتخصصة (الليمفاوية) حيث لديها قدره فائقة علي التعرف علي الأجسام الغريبة. وقد تمثل هذه الظاهرة أو الوظيفة بالبصمة العقلية حيث أن كل خلية مناعية لها بصمة خاصة بها فقط ومختلفة عن بصمة الخلايا الأخرى بحيث كل بصمة تتعرف علي جسم غريب واحد دون الأخر. وبعد ان تتعرف الخلية المناعية علي الجسم الغريب ببصمتها تقوم الخلية بترجمه هذا التعرف من خلال مجموعة من العمليات الدقيقة إلى إشارات متشابهة تؤدي مجتمعة إلى افراز بروتينات قد يزيد مستواها أو ينقص حسب الحالة المناعية والتي تشبه هنا الإفرازات الفكرية الناتجة عن البصمة العقلية. وحتى تستقيم وتصح العلاقات الإنسانية فعلى كل عاقل أن يحرص على معرفة بصمته العقلية وطبيعة إفرازاتها الفكرية وإذا ما كانت الأخيره جامده أو متحرره وذلك كحرصه على معرفة بصمة اليد والعين والماده الوراثية. فالعلم بالشئ يظهره في أحسن صورة ويجعله مفيداً. ومن يدري لعل يأتي إلوم الذي يسجل في بطاقه الرقم القومى لكل منا نوع بصمته العقلية ونوع إفرازتها الفكرية. فقد يكتب يميني أو يساري أو شمالي أو جنوبي أو الإتجاهات التي بينها مثلها مثل فصيله الدم

وبصمة الأصابع والعين والمادة الوراثية وبصمة الأنسجة التوافقية على الخلايا المناعية.

وعلينا ألا ننتظر حتى يتم الكشف عن بصماتنا العقلية والفكرية لأن كل منا يستطيع تحديد بصمته. فقد أرى علي سبيل المثال أن بصمتي يمينية/شرقية وأعني باليمينية الاعتدال والشرقية الميل تجاه موروثاتنا الفكرية والتي تستوعب جميع الأفكار العقائدية. ولأن العقل أمانة استودعها الله في عقولنا، فعلينا أن نكون قادرين على حمل الأمانة وحمايتها من كل جمود أو زيادة أو نقصان فكري الأمر الذي لا يتم إلا بفضل وتوفيق من الله الوهاب للأمانة واجتهاداً منا مع إرادة وتصميم لصالح العلاقات الانسانية ببساطة لأن الدين هو المعاملة.

اللهم أنر عقولنا وزكي بها أفكارنا.

البريد الإلكتروني للكاتب: Mohamed.labib@science.tanta.edu.eg